كتب بالعربية

أسرى بلا حراب: المعتقلون الفلسطينيون والمعتقَلات الإسرائيلية الأولى، ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩

مصطفى كبها ووديع عواودة

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٣. ٣٣٢ صفحة.

مؤلفا هذا الكتاب هما: مصطفى كبها، وهو أستاذ جامعي وباحث يُعنى بكتابة التاريخ الفلسطيني الحديث وتاريخ الصحافة العربية، من مواليد قرية أم القطف في المثلث الشمالي؛ وديع محمود عواودة، وهو كاتب وصحافي من بلدة كفر كنّا قضاء الناصرة، يُعنى بتوثيق الرواية الشفوية الفلسطينية منذ أكثر من عقدين، فضلاً عن عمله في ميدان الصحافة.

يتناول كتابهما "أسرى بلا حراب: المعتقلون الفلسطينيون والمعتقَلات الإسرائيلية الأولى ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩" موضوعاً مهماً لم يسبق أن تطرق له الكتّاب الفلسطينيون، وهو موضوع المعتقلين الفلسطينيين والمعتقَلات الإسرائيلية الأولى في سنتي ١٩٤٨ و١٩٤٩. وقد استندا في إعداده إلى المصادر الأرشيفية العائدة إلى الجيش الإسرائيلي وإلى منظمة الصليب الأحمر، كما استندا إلى المصادر الشفوية، عبر إجراء عشرات المقابلات مع مَن وُجدوا أحياء من المعتقلين.

يتكوّن الكتاب من مقدمة وتمهيد، ومن قسمين رئيسيين، فضلاً عن ثبت بالمراجع وملحق وفهرست بأسماء أصحاب المقابلات الشفوية.

في القسم الأول، الذي حمل عنوان "قصة المعتقلات: خلفية وتفصيلات وأبعاد" (ص ١٩ ـ ١٠٢)، وتوزع على أربعة فصول، يسترجع المؤلفان "سياقات القضية بجوانبها المتعددة،" من خلال معالجة أوضاع المعتقلين وخصائص السجّانين وطبيعة المعتقلات والعمل الذي فُرض على المعتقلين. أمّا القسم الثاني الذي حمل عنوان "الشهادات الشفوية وقوائم أسماء الأسرى" (ص ١٠٣ ـ ٣٠٤)، وتوزع على فصلين، فهو من جهة "توثيق، طبق الأصل، لنصوص الروايات الشفوية" التي أجراها المؤلفان، من سنة ٢٠٠٥ حتى سنة ٢٠١١، ومن جهة ثانية "ضبط وثبت" بأسماء ما يزيد عن ٥٠٠٠ من المعتقلين. بينما اشتمل الملحق على صور ووثائق تعود إلى تلك الفترة التاريخية، أو إلى صور حديثة لبعض المعتقلين الأحياء.

المعتقلون

يشير المؤلفان إلى أن عدد الذين اعتُقلوا في أثناء احتلال القرى والمدن في مختلف مناطق فلسطين، تراوح ما بين ٧٠٠٠ معتقل كحد أدنى و١٢,٠٠٠ معتقل كحد أقصى، ممّن كان في وسعهم حمل السلاح (أي من الفئة العمرية ١٥ ـ ٦٥ عاماً). وكانت أغلبيتهم الساحقة من الفلسطينيين (٨٢٪)، كما كان ضمنهم أسرى عرب، من العسكريين وشبه العسكريين، أو من العمال والأجراء العرب ممّن عملوا في الموانئ والمزارع الفلسطينية. أمّا مدة اعتقالهم، فتراوحت بين ١٢ شهراً و١٨ شهراً.

وكانت عملية الاعتقال تتم بصورة عشوائية، أو على أساس قوائم أسماء معدة سلفاً. وكان الجيش الإسرائيلي أحياناً يستعين بمعرّفين من المتعاملين كان بعضهم يجلل رأسه بكيس من الخيش، ويدعى "رجل الكيس" أو "رجل الخيش". كما حاول جهاز الاستخبارات الإسرائيلي زرع مستعربين يهود في صفوف المعتقلين.

واعتبرت سلطات الجيش الإسرائيلي معظم المعتقلين "أسرى حرب"، وذلك لتبرير اعتقالهم من دون لوائح اتهام ومحاكمة، متجاهلة كون بعضهم لم يحمل السلاح. وبهذه الصفة، كان هؤلاء المعتقلون مرشحين للطرد والالتحاق بعائلاتهم وراء الحدود. وشهدت المعتقلات، بالفعل، محاولات لتهجير الأسرى بمساومتهم بشأن حريتهم.

وبينما تعرض المنتمون إلى معسكر المفتي والناشطون في الحركة الوطنية الفلسطينية لضغوط ومضايقات أكثر من غيرهم، ترددت روايات أن إدارة معسكرات الاعتقال كانت تفضّل الشيوعيين على سائر المعتقلين في مراحل الاعتقال الأولى، لكنها تخلت عن هذا التفضيل عندما بدأ المعتقلون الشيوعيون بتنظيم المعتقلين وتطوير آليات ممارساتهم الاحتجاجية، وحثّهم على البقاء في وطنهم. ومن ناحية أُخرى، سعت السلطات الإسرائيلية للتفريق بين الطوائف في كل ما يتعلق بالمرشحين للاعتقال، فمنحت المسيحيين بعض التسهيلات، واستثنت الدروز بصورة شبه كاملة من عملية الاعتقال.

السجّانون

أمّا السجّانون الذين كانوا يديرون المعتقلات ويُشرفون على نقل المعتقلين إليها، فتوزعوا، من جهة، على الضباط، الذين كانوا في الثلاثينيات من عمرهم، وهم على الأغلب يهود غربيون لم يكونوا يجيدون اللغتين العبرية والعربية، واختاروا الحديث مع المساجين باللغة الإنجليزية، إمّا عن طريق بعض السجناء الذين أجادوا هذه اللغة، وإمّا بواسطة "ترجمان" يهودي أجاد اللغتين العربية والإنجليزية؛ ومن جهة ثانية، على الأنفار الذين كانوا في العشرين من عمرهم، ومن المهاجرين الجدد من الدول الأوروبية في معظمهم، وبعضهم من اليهود الشرقيين ممّن كانوا يجيدون اللغة العربية. وبسبب تباين أصولهم وخلفياتهم اختلفت

معاملتهم للمساجين، فكان بينهم "السجّان القاسي" الذي تميّز بالظلم والقسوة في تعامله مع السجناء، و"السجّان اللطيف" الذي أقام علاقات وصداقات إنسانية مع السجناء.

المعتقلات

انقسمت المعتقلات التي أقامتها السلطات الإسرائيلية، إلى ثلاثة أنواع: الأول، كان عبارة عن محطات ومراكز تجميع موقتة شملت نقاط البوليس وسجون ومعسكرات جيش بريطانية، مثل نقطة نهلال، وجلمة، وبيت ليد، وكركور، وبيسان، والرملة، وعكا، إلى سجون ومعتقلات أقيمت داخل القرى نفسها، كما جرى في قريتَي باقة الغربية وجت في منطقة المثلث؛ الثاني، كان عبارة عن معتقلات دائمة ضمت معتقلات استُخدمت مدة عام ونصف عام في الفترة الواقعة بين أيار / مايو ١٩٤٨ وتشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٩، وبينها معتقل إجليل، ومعتقل عتليت؛ الثالث، كان عبارة عن مراكز عمل، ومن أهمها ثلاثة معتقلات هي: صرفند، وتل لتفنسكي، وأم خالد.

تشغيل المعتقلين: بين السخرة والأجرة

فرضت السلطات الإسرائيلية على المعتقلين أن يعملوا في خدمة المجهود الحربي، وتضاربت الروايات فيما إذا كانت أعمالهم تلك أعمال سخرة أم مدفوعة الأجر. فبينما قال بعضهم إنه لم يحصل على أجر قط، ذكر آخرون أنهم حصلوا على أجر زهيد دُفع لهم وقت تحريرهم من المعتقل. وعمل المعتقلون العرب في معسكرات الجيش الإسرائيلي (في مخازن التموين، أو في حفر الاستحكامات، أو في التنظيفات، أو في المطبخ)، أو في القرى المهجّرة (في إخلاء محتويات بيوت هذه القرى المهجرة، من أثاث وفراش ونحاسيات)، أو في تنظيف الشوارع وتعبيدها.

شهادات لمعتقلين

في القسم الثاني من الكتاب، أورد المؤلفان عدداً كبيراً من الشهادات الشفوية التي حكى فيها المعتقلون، بلهجتهم العامية غالباً، حكايات مؤثرة عن طبيعة المواجهة التي دارت في سنة ١٩٤٨ على أرض فلسطين، وعدم تناسب القوى فيها بين الطرفين المتواجهين، وعن ظروف الاعتقال، ونضال السجناء داخل المعتقلات، والممارسات القمعية التي كانت تلجأ إليها السلطات الإسرائيلية والسجّانون، كالقتل العمد وارتكاب المذابح وعمليات التهجير، وعن النزوح والتوق إلى العودة إلى أرض الوطن. وبشأن طبيعة المواجهة وعدم تناسب القوى فيها، وردت الشهادتان التاليتان:

ـ شهادة أحمد شيخ أحمد صالح من إعبلين:

> كنت تيجي على بلد
> زي إعبلين فيها
> سبعة أو ثمانية
> بواريد تعبانات،
> وفي مستوطنة
> كفار آتا بتلاقي
> ٢٠٠ بارودة
> ومدربين على
> استعمالها، فكيف
> بدنا ننتصر، ها؟
> (ص ١١٠).

ـ شهادة حنا إبراهيم الياس من البعنة:

بعد قرار التقسيم كان العرب يستهترو باليهود. وأنا سمعت واحد بقول: ما في حاجة للسلاح، بكفي لبوش السمسم [نبتة السمسم] علشان نطردهن. لكن اليهود كانو في الواقع يبنو دولة. كنت أعمل في مدرسة الشرطة في بيت لحم ولم أهتم بالسياسة، إلاّ إنني اكتشفت الفوضى العربية. أجا جمال الحسيني على بيت لحم فأطلقوا كل الذخائر احتفالاً به... إسرائيل كانت معنية بالحرب علشان يصير لها حجة لطرد العرب فهي ما اكتفت بـ ٥٤٪ من أرض فلسطين، والجامعة العربية أعطت إسرائيل الحجة فهي أعلنت الحرب ولم تشارك فيها، وأرسلت جيش الإنقاذ اللي ما أنقذ حدا. وهون في الجليل ما ساعدوا حدا (ص ١٤٨).

وعن ظروف الاعتقال، وردت الشهادات التالية:

ـ شهادة أمين يوسف محمد علوان من عين ماهل:

نزّلونا من العمارة في إجليل. طخوا فوق روسنا، وكل خمسين متر كانوا يوقفونا ويطخوا علينا. بعدين أخذونا على الكام [الكامب]... قعدنا هناك ٥٢ يوم بالخيمة. بالليل نقيم عمود الخيمة وننام عليها ونتغطى بها، وبالنهار نرفع العمود نتظلل بالخيمة. الصبح يجيبوا تنكة شاي ويعطوا كباية لكل واحد. والظهر يجيبوا طنجرة فاصوليا فيها يمكن كيلو فاصوليا والباقي مي. بطّلنا نقدر نوقف على جرينا من الجوع... الوسخ كان طامم وعامم. القمل أربعة أنواع يسبح على الرمل ومنو نوع زي العقرب (ص ١٩١).

ـ شهادة عبد المعطي يوسف عدوي من طرعان:

دخلنا الخيام [في معسكر إجليل] وقعدنا على الأرض، وكان القمل يمشي على الأرض زي النمل بسبب الأوساخ... في كل صباح كانوا يجيبوا تنكة شاي لكل عشرين أسير... فطورنا كان شاي وبس. بالظهر كانوا يجيبوا تنكة شوربة عدس أو قرع أو بازيللا بدون خبز، وعند المغرب كان العشا خبز ناشف بس. كل خمسة مساجين رغيف أبو الكيلو. كنا نطلب الخبز مع الشاي في الصباح فرفضوا. أمّا ماء الشرب فكانت حنفية للكل. يقف الأسرى قدامها للشرب بالدور، ولا

يوجد حمامات أو مراحيض بل قضينا حاجاتنا داخل المعسكر بالبرية (ص ٢٠١).

ـ شهادة محمد داود أبو الهيجا من عين حوض:

في المعتقل دبّونا أربعة شهور داخل سجن عتليت، وكانت الأرض فراشنا والسما غطانا. نشلح من أجرنا ونحط الكندرة تحت راسنا وننام. بالنسبة للأكل كانو يعطونا رغيف لكل خمسة مساجين مع ملعقة حمص زغيرة فطور. وعند الظهر أعطونا شوربة بتقرّف. بعد أربعة شهور طلّعونا على كريات متسكين علشان نشتغل بهد البراكسات. صرنا نشبع اللقمة وبعدين يعطونا بطانية بسبب البرد... كان القمل زي النمل (ص ٢١٠ ـ ٢١١).

وعن نضال السجناء داخل المعتقلات، وردت الشهادة التالية:

ـ شهادة إبراهيم أنطون يوسف يعقوب بولس من البعنة:

في الطيرة الشغل كان بكام الجيش منيح، أمّا في موتسكين فكان البرد صعب، وعشان هيك أضربنا... بعد ذلك قمنا بالتنظيم، كشخص ينتمي لعصبة التحرر الوطني. ولمّا شافونا تكتلنا جابوا ظابط جديد، فأضربنا عن الطعام، وبالذات الشيوعية وأكثريتهن من البعنة والرامة وعيلبون. أضربنا عن الأكل احتجاجاً على عدة أشياء: المعاملة السيئة، والعمل بشروط لإنسانية، وعلى الأكل، وطالبنا بتحريرنا لأننا مش أسرى حرب...

بعدها زارنا النائب توفيق طوبي وبعدين ميكونيس، ووعدوه بتحسين الأكل والبدء بالتفكير بتحريرنا. وطلب منا توفيق طوبي وقف الإضراب وأنا صفرنت هذاك اليوم من شدة الجوع بعد سبعة أيام من الإضراب عن الطعام. فعلاً حسّنوا المعاملة...

بعدين طلبوا منا تسجيل العمال وإبلاغهن مَن يريد السفر للخارج فيمكن الإفراج عنه بعد أسبوع. أمّا مَن يفضّل البقاء فلا نعرف متى سنطلق سراحه. هيك خبرونا. عملنا اجتماع للعمال وصرنا نقنع العمال بالبقاء بعد ما اجتمعنا بقيادة عصبة التحرر بالسجن... صرنا نشرح للعمال إنو البقاء بالبلاد هو عمل وطني (ص ١٨٤).

وعن عمليات القتل العمد والمذابح التي لجأ إليها الجنود والسجّانون الإسرائيليون، وردت الشهادات التالية:

ـ شهادة محمد إبراهيم علوان من عين ماهل:

كانوا [اليهود] يقتلوا ناس انتقام، بس مش بالوجه. كانو يطلبوا منو إنو يروح يلقط تين مثلاً فيطخوه بظهره، ويقولو "هرب"، وهيك سمعنا عن قتل ثلاثة أربعة... علشان لمّا بييجي الصليب الأحمر تظهر وكأنها فعلاً عملية هرب مطخوخ بالظهر (ص ١٧١).

ـ شهادة عودة عباس عودة الأشهب من الخليل:

اقتادوا المئات من الأسرى المصريين ونحن معهم إلى المسجد الكبير في بئر السبع، حيث بقينا فيه أسبوعين... قام أحد الجنود الصهاينة بإلقاء قنبلة إلى داخل المسجد انتقاماً لشقيقه الذي قُتل في المعارك، كما زعم، ونتيجة لذلك قتل عدد كبير من الأسرى (ص ١٦٣).

ـ شهادة فايق أبو منة من اللد:

كانت دوريات عسكرية تلف شوارع اللد بعد سقوطها وتدعو عبر مكبرات الصوت إلى مغادرة البلد وبالعربية: علشان ما يصيبكم ما أصاب مَن ذُبحوا في مسجد دهمش... لمّا جمعوا الناس عند مسجد دهمش كان شاب من عنّا يعمل على إنتاج فيلم سينمائي عن اللد قبيل النكبة، يدعى جميل هيرون، ألقى قنبلة يدوية على بعض الجنود قبالة المسجد فقتل اثنين منهم قبل أن يقنصه جندي آخر كان على سطح المسجد. وبعدين قام أحد الجنود الصهاينة بالانتقام بواسطة حصد العشرات داخل قاعة المسجد... ما إن وصلنا، روّعنا مشهد غير إنساني ما تخيلته في أفظع كوابيسي. كانت حوالي ٧٠ جثة مكدسة في غرفة بجنبات صحن المسجد، وكانت جدرانها ملطخة بالدم، والأرض بركة دم، والحيطان مخردقة بالفشك... تمّ نقل الجثث بتعليمات الجيش إلى المقبرة بالسيارات وكان الجنود الصهاينة منعونا من دفن الجثامين وأجبرونا على حرقها، عدا جثث السيدة والطفلتين اللي دفناهن في قبر جماعي بالركن الشمالي الشرقي للمقبرة. جمعنا الأخشاب والأعشاب اليابسة في المقبرة وأمرونا بجلب القماش والملابس من المنازل المجاورة وتكديسها على الجثث (ص ١٦٧ ـ ١٦٨).

ـ شهادة سليمان إحسان إعمر من الطنطورة:

بعد فشل هذه

المحاولات [إقناع أهالي القرية بالاستسلام] هجم الجنود اليهود على القرية براً وبحراً، في أيار [مايو] ١٩٤٨ ومن جميع الجهات، الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، فقاوم الأهالي حتى نفاد ذخيرتهم قبيل شروق الشمس مفضّلين الموت على الاستسلام... قام الجنود بجمع الشبان، وألزموهم مكرهين بحفر خندق كبير تحضيراً لدفن الشهداء في قبر جماعي، بعد أن جمعوهم وأطلقوا الرصاص عليهم جميعاً، وأعدموهم. أوقفوهم صفاً صفاً بجانب بيت آل يحيى في القرية، أمّا النساء فقد وضعوهن في شاحنات كبيرة ونقلوهن إلى قرية الفريديس، وما تبقّى من رجال وأطفال وضعوهم في شاحنة، وبالطبع أنا كنت معهم، بعد أن كنت يتيم الأب، واستشهد أخي محمد الذي كان في العشرينات من عمره (ص ٢٣٨).

وعن عمليات التهجير، وردت الشهادة التالية:

ـ شهادة سعود وفيصل الأسدي عن تهجير أهالي دير الأسد في الجليل:

كان جيش الهاغاناه... قد اختار أربعة شبان بالإشارة إليهم من بين الأهالي المتجمعين بين أشجار الزيتون في حاكورة قاسم رشيد، اثنين من دير الأسد: أحمد عبد الله عيسى الأسدي وصبحي محمود الحاج الذباح، واثنين من البعنة: علي محمد العابد وحنا الياس فرهود. وكان أحد الجنود قد أحضر أربع صفائح جيشية وناول كل واحد من الأربعة صفيحة وأمرهم أن يذهبوا بصفائحهم ليجلبوا ماء من العين الشرقية، وبالطريق إلى العين أمرهم الجند المرافقون أن ينبطحوا على الأرض، وقتلوهم بإطلاق الرصاص عليهم بدم بارد عن بعد أمتار... ولمّا سمع الناس إطلاق النار بالأسلحة الأوتوماتيكية أيقنوا أن الشباب الأربعة قد قُتلوا فدبّ فيهم الفزع والهلع. وبعدها أمر الجيش الناس أن يهجّوا وينصرفوا إلى لبنان وسورية بعد اعتقال الكثير من الرجال... الناس هربوا بالطرد القسري، وبسبب الرعب جعل بعضهم وجهته إلى لبنان وسورية (ص ١٢٠ ـ ١٢١).

وعن ظروف النزوح والتوق إلى العودة، وردت الشهادة التالية:

ـ شهادة الحاج سعيد محمد عبد الله حسن من قرية فراضية المهجّرة:

فاتوا علينا في ١٥/١٠/١٩٤٨ بعد الظهر، جيبات عسكرية مع أسلحة رشاشة. وبعد شوي

سمعت أمّي إنهن قتلوا أخوها أحمد الصفدي وهو راجع من أرضه... وفي الليل صار الناطور ينادي ويقول إنو سبعة شباب من البلد مقتولين شمالي حاووز المي فلان وفلان، وذكر اسم أخوي منهن... وفي اليوم التالي بعثوا للمختار حجو أحمد حسين بضرورة تسليم السلاح، ثم نسفوا بيته بعد ما إنهن أخرجوه منو. جمعوا الشباب كلها في الحارة، حارة زريق، وهناك شباب هربوا للوعر. أخذوا ٣٥ شاب إلى المعتقلات في صرفند وعتليت، وكان والدي محمد عبد الله حسن واحد منهن. في هذاك اليوم إجا علينا لاجئين من حطين وعيلبون فقام جنود اليهود وكاشونا كلنا قدامهم وصاروا يطخوا فوق روسنا الرصاص بغزارة وكان أحدهم يقول بعربية مكسرة: "يللا روخو من هون على القاوقجي"... أطلعونا على السيارات تراكات عشرين سيارة، وشمال سعسع في وادي قطمون أنزلونا وقالو بالعربي: "يللا إنزلوا"، وبدينا نمشي بالوعر وبين القندول وصاروا يطخو علينا بالهوا حتى وصلنا رميش [في لبنان]. هناك وبسبب العطش الشديد هجمنا على بركة المياه المعدة للطرش. قعدنا برميش يوم ونمنا على البيادر. ثاني يوم هجّينا على بنت جبيل. نمنا قبال شرطة القرية في الساحة الكبرى وقعدنا يومين وأجا الجيش السوري واللبناني وأخذونا على صور وأعطونا خيم. قعدنا شتوية كاملة في المخيم بجانب البص... رجعنا بعد ما كانت أمي تقول بدي أرجع أعيش في مغارة بفلسطين ولا في قصر بلبنان. بالليل رجعنا على فلسطين. مشينا بالوعر وقطعنا الحدود ووصلنا الجرمق وبيت جن. وصلنا بعد منتصف الليل على عين الأسد وقعدنا هناك نصف سنة، لأنها مجاورة قبل ما ننتقل على الرامة. رحنا على بيتنا في فراضية فما لقينا إشي. انتهب كل شيء. بعد ما أخفينا حقيقة عودتنا من لبنان أعطونا هويات (ص ١٥٥ ـ ١٥٧).

وختاماً، فإن هذا الكتاب المهم والمؤثر يشكل إضافة نوعية إلى المكتبة الفلسطينية، تساهم في تزكية الرواية الفلسطينية عن نكبة سنة ١٩٤٨ وما رافقها من عمليات قمع وتهجير وتدمير.

ماهر الشريف
باحث فلسطيني